أدويسا التنوع الثقافي وصراع الحضارات – مقاربات في أنثروبولوجيا التفسير الثقافي –

د. عبد القادر لصهب[1]

D. Abdelkader Leshab[1]

[1]المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، lashababdelkader@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/09/23 تاريخ القبول: 2019/11/16 تاريخ النشر: 2020/01/01

ملخص:

يأخذ البحث الأنثروبولوجي حيويته الملفتة من ذلك التعدد / التنوع الذي يسم منظومة الإنسان الثقافية؛ تنوع متجدد حسب إحداثيات الزمان والمكان، حيث تتنوع المظاهر الثقافية من جماعة إلى أخرى، بحسب منظومة فطرية للاختلاف تؤطر ميولات الإنسان المعنوية / الاعتقادية والسلوكية، بل إن البحث الأنثروبولوجي لم يكن ليقوم – كتوجه معرفي يبتغي بدءا الكشف عن المقومات الوجودية للآخر / المختلف – لولا ذلك التنوع الحاصل على مستوى الأداءات الاجتماعية والثقافية.

ومنه يكون البحث في منظومة " الاختلاف " و" التباين / التمايز "هو السمة التي يتأسس وفقها فهم" الآخر، باعتبار ذلك التنوع الذي يركب صورة الوجود الإنساني في معطاه الديني واللغوي والإثني وغيره.

كلمات مفتاحية: التنوع الثقافي – صراع الحضارات – قيم التعايش – الاختلاف.

Abstract:

Anthropological research takes its striking vitality from that plurality / diversity that characterizes the human cultural system; renewed diversity according to the coordinates of time and space, where cultural manifestations vary from one group to another, according to an innate system of difference framing human tendencies moral / belief and behavioral, but the anthropological research was not To do so - as a cognitive orientation that seeks to reveal the existential elements of the other / different - otherwise the diversity obtained at the level of social and cultural performances. Thus, research in the system of "difference" and "differentiation / differentiation" is the characteristic by which the understanding of the "other" is established, as it is the diversity that embodies the image of human existence in its religious, linguistic, ethnic and other aspects.

key words: Cultural diversity - clash of civilizations - values of coexistence - difference.

المؤلف المرسل: عبد القادر لصهب، **الإيميل:** lashababdelkader@gmail.com

1- الأنثروبولوجيا وقيم الاختلاف الثقافي:

تشكل الثقافة قاعدة خصبة للاشتغال الأنثروبولوجي، ذلك لما تختزنه من عناصر دالة على التوجهات العامة للمجتمعات الإنسانية، والتي تدفها – آليا – إلى إدراك وجود نظم رباطية تؤطر علاقته بالمجتمعات الأخرى وترسم الخصوصيات التي تميز كل جماعة، بما يسمح لها بالوعي بكيانها المتفرد.

ذلك أن ما يميز الإنسان عن بقية أعضاء العالم البيولوجي هو كونه كائنا " مثقفا "، أي أن الذي يصنع خصوصيته الحيوية هو " الثقافة "، وليست " المنظمات الاجتماعية "، باعتبار أن الإنسان "هو وحده الذي يستخدم اللغة، ويصنع الأدوات، وهو وحده الذي يؤمن بالأديان ويبتكر الفنون، كما يبتكر ويمارس الجوانب الأخرى في النشاط الثقافي "**(محجوب، محمد عبده: د.ت،14)**.

ومن ثم يغدو الاهتمام بالثقافة في الدرس الأنثروبولوجي بمثابة حفر معرفي في العناصر التي تؤسس خصوصية الإنسان وتفرده عن باقي الموجودات والتكوينات البيولوجية الأخرى.

وعلى رأي محمد عبده محجوب، فإنه إذا كانت الثقافة تتميز بقابليتها للتغير، كما تتميز بما لها من قوة دينامية دافعة، فلا بد من دراستها في أبعادها التاريخية، فضلا عن التعرف على العلاقات القائمة بين العناصر المكونة لها. وهذا يعني بقول آخر أننا حين نعنى بدراسة عناصر الاستمرار والتغير في المجتمع، وحين يكون موضوع بحثنا هو الثقافة، فإننا لن نقتصر فقط على دراسة المنظمات الاجتماعية التي تتحكم في ردود أفعال الإنسان تجاه الأعضاء الآخرين في المجتمع الذي ينتمي إليه... ولكننا نعنى أيضا بمظاهر السلوك الاجتماعي التي تقوم في حدود منظمات اجتماعية معينة، كاللغة، والعلاقة بين اللغة

ومظاهر السلوك والعلاقة بين الثقافة والشخصية، ونظام القيم الذي يترك دلالات واضحة على طرق السلوك المقبولة عند أي شعب من الشعوب **محجوب ، محمد عبده : د.ت،15).**

غير أن الثقافة باعتبارها عنصرا جامعا لدى كل بني الإنسان لا يمكن اعتبارها البتة مظهرا مشتركا فيما يخص التوجهات الفرعية للثقافة – كمفهوم إجرائي – ذلك أن الثقافة تحكمها عوامل تنبع منها كقيمة وجودية إنسانية، فالدين واللغة والعادات والممارسات الطقسية غير متماثلة عند كل المجتمعات، بل إنها تتباين من جماعة إلى جماعة، بل إن المجتمعات الحديثة التي تتشكل وفق أطر سياسية وجغرافية تكوّن مفهوم " الدولة " لَتقوم وفق تباين صارخ في الثقافات، تبعا لاختلاف الدين والإثنيات وتعدد اللهجات / كمعطى لغوي.

وهذا أمر لا تستثنى منه الحضارات القديمة التي لم تكن عنصرا جامعا لثقافة موحّدة، أو لمجموعة إثنية منفردة، بل إننا لنجد أن الحضارات تلك قد توسم في صورها الشكلية بسمة إحدى تكويناتها الفرعية – الدينية مثلا أو الإثنية أو حتى اللغوية – في حين يمارس نوع من الإسقاط المدوناتي أو الحذف المنهجي لتكوينات ثقافية أخرى، مباينة للمشهد المعروض، مختلفة عنه، بل ومتضادة معه في أحايين عدة.

فلو قلنا مثلا " الحضارة المصرية " فإن ظاهر العبارة يوحي بأنها مختصة فقط بالمصريين كجنس منتسب إلى جغرافيا معينة، في حين أن هذه العبارة تخبّئ في طبقاتها التكوينية مساهمات لأجناس أخر عاينوا هذه الحضارة وكانت لهم إسهامات فيها، "كالهكسوس" مثلا، الذين حكموا مصر لأحقاب وأسر متتابعة، استمرت لقرنين من الزمان، وكذلك الإسرائيليون الذين كان لهم حضورهم في هذه الحضارة – تاريخيا – وكانت لهم ثقافتهم الدينية وممارساتهم الثقافية وطقوسهم التعبدية التي كانت مختلفة في جوانب كثيرة

منها عن ثقافة وممارسات المصريين، دون أن ننكر ذلك التأثير الذي عاين التوجهات الثقافية والاجتماعية الإسرائيلية بفعل الاحتكاك بغيرهم.

وقد ينسحب هذا الكلام على نماذج كثيرة من الصور الحضارية الإنسانية كحضارة الرومان، والحضارة الإسلامية التي لا يمكن إغفال مساهمات كثير من العناصر غير الإسلامية في مشاهدها / معطياتها المعرفية والفنية / الجمالية / الإبداعية.

بل إن الإسلام – كقيمة ثقافية – في حد ذاته لا يمثل في كثير من تفرعاته وحدة جامعة، وذلك بفعل تعدد الفرق والمذاهب، فنجد مثلا تباينا ثقافيا كبيرا بين السنة والشيعة، أو بين الإباضية والمالكية، وكذلك بين المتصوفة والسلفية، وغيرهم.

وبذلك تمثّل ظاهرة الاختلاف الثقافي واقعا لا يمكن تجاوزه عند التعرض لقضايا الثقافة الإنسانية، حيث تخضع المجتمعات الإنسانية – حتى الحديثة منها – إلى نزعة تركيبية متعددة الأقطاب، شكّلت، ولا تزال، اللبنة الرئيسة لإعمال طرائق الاشتغال الأنثروبولوجي على الثقافة كتركيب يؤسس للاختلاف والتمايز، وتعد أعمال " فرانز بوا " **(FranzBoas)(1858-1942)** " محاولة للتفكير في الاختلاف، الاختلاف الأساسي بين المجموعات البشرية بالنسبة إليه هو ذو طبيعة ثقافية لا عرقية " **(كوش، دنيس:2007، 35).**

كما تعد أطاريح " لوسيان ليفي بروهل " **(LucienLevy-Bruhl) (1657-1939)** الاختلافية من التوجهات المعرفية في العلوم الاجتماعية التي انصب تركيزها على عامل اختلاف الثقافات وتباينها، حيث " كان يرى أن الذهنية ما قبل المنطقية ليست غير قابلة للتوافق مع الذهنية المنطقية، ويرى أنهما تتعايشان في كل مجتمع، ولكن سيادة الواحدة أو الأخرى يمكن أن تتبدّل وفق الحالة، وهو ما يفسّر تنوع الثقافات. لم يكن يزعم إذًا عندما

كان يعمد إلى استخدام مفهوم " الذهنية " أن أنساق التماثلات وأنماط التفكير العقلي داخل الثقافة الواحدة تمثّل كلاّ تام الاستقرار والانسجام، ولكنه كان يقصد بذلك تحديد التوجه العام لثقافة ما"**(كوش، دنيس:2007، 51)**.

وفي حقيقة الأمر فإن موضوع " التعددية الثقافية " شكّل توجها معرفيا لدى كثير من البحّاثة الأنثروبولوجيين، وذلك لما يمنحه للبحث من حيوية ومن اتساع لآفاق الرؤية المقارنة والطرح النقدي، بيد أن طرح الموضوع في أساسه إنما جاء في سياق تلاقي عاملين اثنين، يجملهما " وجيه كوثراني " في **(كوثراني، وجيه:1984، 11)**:

- صعود الحركات المناهضة للاستعمار.
- التوجه في الدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية الغربية نحو نقد منهج الإثنية المركزية الأوربية الذي تحكم بدراسة أوضاع وتواريخ الشعوب غير الأوربية وغير الأمريكية في مرحلة التوسع الاستعماري، ونحو نقد منهج " الوظيفية " (المدرسة الانكليزية) التي ميزت الدراسات التي خدمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة الإدارات الأجنبية في "إعدادها" الشعوب الأخرى للاستقلال و"الحكم الذاتي". وكان يتحكم في منهج الحالتين فلسفة "التطورية الاجتماعية" الوحيدة الجانب، أي حتمية انتقال الشعوب من مرحلة إلى مرحلة وفق نمط واحد.

وقد شكلت توجهات " المدرسة الثقافية الأمريكية " نزعات نقدية للأحادية الثقافية، منتهجة مفاهيم التنوع الثقافي باعتبارها معطيات تاريخية وطبيعية تسم السيرورة الحضارية الإنسانية، ومن ثمّ " أصبحت موضوعات نقد الإثنية المركزية الغربية وعالمية " حضارتها " النافية للحضارات الأخرى من أبرز موضوعات نقد مناهج الإثنولوجيا الغربية المركزية،

وأصبحت واقعة تعددية الثقافات في العالم أمرا يجهد بعض الباحثين في التأكيد عليه وتبيان التمايزات التي يقوم عليها هذا التعدد "**((كوثراني، وجيه:1984، 13).**

كما ساهمت الأنثروبولوجيا البنيوية واشتغالات " كلود ليفي ستروس " **(ClaudeLevi–Stauss)** في إبراز ظاهرة التنوع الثقافي باعتبارها خبرة إنسانية، حيث يطرح ليفي ستروس مسألة تنوع الثقافات من ضمن الأبعاد التي من شأنها أن تؤثر بأشكال مختلفة في تقارب الثقافات، تجاسنها أو تباعدها واختلافها. هذه الأبعاد هي: العرق، الدين، الجغرافيا والتجاور، العزلة، المجتمع السياسي، اللغة، ويعطي أمثلة على تداخل اللغة والجغرافية (التجاور البشري) وذلك من خلال وجود لغات ذات جذور مختلفة ولكنها متكلمة في مناطق متجاورة، كما يطرح مثلا آخر على احتمال بروز ظاهرة التنوع الثقافي في مجتمع من أصل حضاري واحد أو ذي تشكيل سياسي واحد.

ويرى وجيه كوثراني أن " ما يلاحظه ستروس من تنوع بالنسبة لمجتمعات سياسية من أصل حضاري واحد خارج أوربا يمكن ملاحظته في رأينا في أوربا نفسها. ففي التاريخ الحديث والمعاصر، طرح تشكّل " الدولة الحديثة " التي اتجهت في بعض البلدان الأوربية وبفعل ظروف اقتصادية وعوامل فكرية معينة نحو التوحد الحصري والكلي **(totalitaire)** أو الدمج القومي بين الدولة والمجتمع في صيغة دولة – أمة **(Etat– Nation)** طرح فروقات ثقافية داخل المجتمع أخذت تطفو على السطح على المستوى السياسي بصورة مطالب لأقليات إثنيات أو لغوية أو دينية "**(كوثراني، وجيه:1984، 15–16)** .

غير أن هذه التوجهات اصطدمت بمشكلات تحديد حقل المقارنة وحدود الاختلاف ومعيار التباين أو التجانس، وأخذ يطرح من جهة أخرى أسئلة واتهامات من قبل باحثي العالم الثالث: ألا تساهم هذه التأكيدات على الاختلاف والتنوع والتعددية في إعاقة التنمية

المستقلة وحل مشكلات المجتمع (التابع) وتحرير الإنسان من قيود ماضوية معيقة تتقاطع مع الثقافة المستعمرة؟ ألا تساهم عملية البحث الدؤوب عن التمايزات في ظرف سياسي يتسم بطغيان الصراع الدولي واستقطابه للصراعات الإقليمية المحلية إلى احتمال اندراج التنوع والتعدد في خارطة الصراع المحلي والحروب الأهلية التي لا نهاية لها **(كوثراني، وجيه:1984، 13-14)**.

ومسألة التنوع الثقافي إنما تأخذ مشروعية حضورها في الدرس الاجتماعي عموما، والأنثروبولوجي على وجه الخصوص، من طبيعة الثقافة ذاتها؛ ذلك أن الثقافة تتغير باستمرار، فهي عامل حي وديناميكي، ولا يمكن القول أنها تبقى قائمة بكل تركيباتها في ظل تعاقب الزمن وتغير الأجيال، فعملية " التوارث الثقافي " تخضع لمتغيرات ترتكز عليها عملية تلقي المعايير الثقافية لدى الأفراد.

وهذه المتغيرات قد تتجسد في عوامل عدة، كالمتغيرات الاجتماعية والمكانية / الجغرافية وكذا المتغيرات الزمانية وغيرها، باعتبارها عوامل تؤثر في عملية " التغير الثقافي " المفضي إلى الاختلاف والتمايز.

وكخطوة أولى في هذا الاتجاه يجب أن ندرك أثر خبرات المرء الناضج – أكثر من خبرات الطفولة – في تشكيل توجهاته، وأن نعي أن لكل من الخبرة الذاتية والمؤسسات دورا مهما في هذا المجال، ولهذا فقد لاحظ " بانفليد " في دراسته لثقافة أهل الجنوب الإيطالي أنهم يظلوا قدريين حال هجرتهم إلى الولايات المتحدة، أما الخطوة الثانية فتتطلب إدراك أن هناك قيما ومعايير متنافسة داخل المجتمع الواحد، ذلك لأن أنماط الحياة التي يتبعها الأفراد تثير لديهم باستمرار تطلعات قد لا تتحقق، وتبشّرهم بنبوءات معرضة للفشل، وتخلق بذلك جوانب غموض قد تؤدي إلى كارثة. لهذا لاحظ " باي " **(Pye)** في دراسته للثورة الثقافية أن

الصفوة الصينية قد تحولت من الثقافة التدريجية إلى المساواتية، ثم العكس مرة أخرى. فكلما انهار أحد أنماط الحياة ظلت الأنماط الأخرى مؤهلة لملء الفراغ،ذلك أن التبريرات والمعتقدات التي تسود في فترة ما لا تلبث تدريجيا (أو حتى فجأة) أن تفقد سطوتها **(مجموعة من الكتاب :1990، 320).**

فالثقافة عامل متجدد يتصل بعملية التنظيم الاجتماعي والسياسي للكيانات الحديثة، ذلك أن التغيرات الديمغرافية النمطية كالدخل والتعليم والدين والعرق وغيرها تسهم بشكل رئيس في عملية تفسير التنوع في الولاءات الأيديولوجية والمذهبية والحزبية داخل التركيبة الاجتماعية الواحدة (سواء كانت هذه التركيبة جزئية كالمدينة أو الناحية أو كانت كلية كالدولة والأمة) وهي تعدّ بذلك مداخل هامة للبحث في ظاهرة التنوع الثقافي.

2- التنوع الثقافي وصراع الحضارات:

شكّل مفهوم "صراع الحضارات" مثارا لجدل فكري واسع في الأوساط العالمية (فكرية / ثقافية وحتى سياسية)، خصوصا بعد تنامي ظاهرة " الإسلاموفوبيا " إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر **2001**، وما لحقها من ردود فعل حادة تجاه " الإسلام " الذي بدأ يسوّق له البعض باعتباره من مرادفات التعصّب وعدم تقبّل الآخر، وراح البعض حد القول أن الحرب القادمة هي استرجاع لماضي " الحروب الصليبية المقدّسة ".

وفي حقيقة الأمر فإن فكرة " الصراع "، في الوقت الراهن، لم تكن نتيجة " تنامي التطرف الديني "، بل مع بداية التسعينات بدأت تلوح في الأفق معطيات حضارية تشي بنوع من الصدام الحاصل بين مختلف الثقافات المشكّلة لتوجهات الحضارة الإنسانية بوجه عام، وبدأت معها تتنامى هواجس " الحروب الدينية " كحتميات تاريخية ينبغي تفاديها والحد من إمكانية عودتها من مجاهل الماضي.

وقد بدأ التنظير لأبجديات الصدام وآفاق الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب بعد سقوط القطب الشيوعي كأيديولوجية معادية للرأسمالية الغربية، ومن ثمّ كان البحث عن "عدو / منافس حضاري" آخر يسمح ببقاء أطول للحضارة الرأسمالية الغربية، ولما كان الإسلام قوة حضارية لها ما يؤهلها لبسط قيمها الإنسانية الشمولية على مختلف التوجهات الاجتماعية والثقافية للجماعات والأفراد فقد كانت النظرة " الصراعية / الصدامية " قد بدأت تلفت إليه النظر لاعتباره المنافس الحضاري القادم.

حيث اتضح أن " الرأسمالية الاحتكارية تحتاج إلى خلق عدو، ولو كان وهميا، فقد بشّر دعاتها أيام الحرب الباردة بأن سقوط ديكتاتوريات بلدان المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفياتي سيكون انتصارا لمبادئ الحرية وحقوق الإنسان، وسيؤدي سقوط الأصنام الكبيرة إلى سقوط الأصنام الصغيرة في بلدان العالم الثالث... ولم تمر إلا سنوات معدودات على سقوط جدار برلين **1989**حتى " عادت حليمة إلى عادتها القديمة "، فبدأت الرأسمالية الاحتكارية تسعى إلى خلق عدو جديد تنظّر له فكريا وإعلاميا، وتعدّ له في الوقت ذاته الخطط الاستراتيجية والعسكرية "**(الجنحاني، الحبيب:2005، 20)**.

ومنه يمكن القول أن نظرية صدام الحضارات التي أتى بها " هنتنغتون " وروجت لها وسائل الإعلام الغربية ما هي إلا " تعبير عن السياسة الأمريكية التي لا تفهم خارج هذا التعريف: لا سياسة من غير تعيين عدو ما، وهذا المفهوم ينسجم مع الفلسفة البراجماتية التي تحكم السلوك الأمريكي بما في ذلك سلوك السياسي. إن السياسة لدى هذا الأخير تعني الميكيافيلية. لقد أكّد هذه الحقيقة " ميشال سارسو " بقوله: " لا يوجد في نظرية صدام الحضارات سوى خطاب الاستراتيجي. ليس هناك سوى البراجماتية... "، وثقافة العدو فيما يرى م.سارسو لا غنى عنها، باعتبار أنها تحفظ وجود الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب...

إن العدو أو الخصم يصلح كمرآة تتأمل فيها الولايات المتحدة قوتها وكفاءتها، وهو ضروري للانتقام منه، ولقد كان العدو المزاح يعي ذلك، فقد صرح أحد الساسة السوفييت في أروقة الأمم المتحدة نهاية **1989**، قاصدا الأمريكيين: " سنفعل لكم أسوأ الأشياء، سنحرمكم من عدو "**(زازوي، موفق وبن معمر، عبد الله:2009، 84)**.

وفي فترة ما بعد الحرب الباردة تعالت أصوات في أمريكا وأوربا تقول زاعمة " المسلمون قادمون... المسلمون قادمون. وتظن قطاعات بارزة في الغرب الأوربي والأمريكي أن الإسلام خطر على الحضارة الغربية. ويبدو أحيانا أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تمّ نسخه تجاه الإسلام. ووفقا لما يراه محللون غربيون كثيرون فإن الإسلام والغرب يسيران على طريق الصدام، وغالبا ما يتم تصوير المواجهة على أنها صدام حضارات. وقد تزعّم هذا التيار "برنارد لويس" الذي كتب محاضرة (نشرت منقّحة سنة **1990**م) بعنوان: "الأصولية الإسلامية"، ثم عدّل العنوان وجعله " جذور الهياج الإسلامي "، وقد روّجت الوسائل الإعلامية الغربية لهذه المقالة التي نشرت في مجلة " أتلانتيك مونثلي "، وكان لهذه المقالة التي كتبها هذا المؤرخ اليهودي الشهير تأثير بالغ على فهم الغرب للإسلام والمسلمين المعاصرين"**(قاسم، عبده قاسم:18)**.

ثم بعد ذلك ظهر الأمريكي " صمويل هنتنغتون " في صيف **1993**بمقال تحت عنوان "صدام الحضارات"، وهو ما أثار جدلا واسعا على مستوى توجهات النخب في الغرب وفي المجتمعات الإسلامية، ثم عادت أفكار هنتنغتون لتظهر مرة أخرى سنة **1996** على شكل كتاب يحوي نظرة أكثر اتساعا لرؤاه التي تضمّنها مقاله المشار إليه.

وتتلخص نظرية هنتغتون في أن خطوط التقسيم بين البشرية ستصبح ثقافية، إذ ستختلف الحضارات التي تعد ذات التنظيم الثقافي الأقصى عن بعضها من ناحية الدين

والتاريخ واللغة والتقاليد، وستصبح الخطوط الفاصلة بينها عميقة ودائمة الأهمية، وهو يشتغل وفق هذا على ثماني نماذج من الثقافات الموزعة جغرافيا وتاريخيا، من الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الإفريقية وكذا المرورا بالثقافة السلافية الأورثوذكسية وثقافة أمريكا اللاتينية إلى جانب الثقافة الأوربية والأمريكية.

وهذه الثقافات / الحضارات التي ذكرها هنتنغتون ليست متكافئة على كل حال، كما قال هنتنغتون نفسه، وليست متماثلة في القوة، فضلا عن ذلك، وكما يقول مؤلف " صراع الحضارات "، فإن سبعا من هذه الحضارات، رغم الفروق الكبيرة بينها، متشابهة، لدرجة أنه يتبين، إلى جانب خطوط الانفصال الجانبية، خط انفصال رئيسي، وهو أن الغرب في مواجهة بقية العالم، أي الحضارة الغربية في مواجهة الحضارة غير الغربية، ولا يترك هنتنغتون مجالا للشك في أن أهم قوة لذلك الغرب تتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية. ولا يكاد يكون صدفة أن هذه المواجهة تتم في الوقت الذي أصبح فيه الغرب في ذروة قوته، وبتعبير أدق الذي أصبحت فيه الولايات المتحدة الأمريكية في ذروة قوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، وإذا ما كان هنتنغتون محقا فإن الغرب يواجه، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، اللاغرب في العالم. إن الحد الفاصل بين الغرب واللاغرب في أوربا يمتد، كما يرى المؤلف، حيث امتدت الحدود الشرقية للمسيحية الغربية في عام ألف وخمسمائة. فغرب هذا الحد يكون السكان اليوم كاثوليكيين أو بروتستانتيين، وشرق هذا الخط مسيحيين أرثوذكس أو مسلمين. وحسب رأي هنتنغتون أسدل ستار حديدي بين الجانبين في الماضي، وهو هذه المرة ليس ستارا حديديا وإنما، كما يقول، ستار الثقافة المحلي **(فيلد، ستيفان:2008)**.

ويستند هنتنغتون في طروحاته التي ذهب إليها على فرضية أن المصدر الرئيس للصراعات القادمة بين الحضارات سيكون ثقافيا، ومع أن الدولة القومية ستستمر في القيام بدور رئيسي في الشؤون العالمية فإن الصراعات المهمة في السياسة الدولية ستكون بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة، وستقوم الحضارات بتكوين علاقات التماسك أو التفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، وتأسيسا على ذلك فإن الصراعات السياسية المحلية التي ستبرز ستكون هي الصراعات العرقية والإثنية، في حين سيكون الصراع المقبل على المستوى العالمي، صراع الحضارات، كما أن القضايا الجوهرية على الساحة الدولية سترتبط بشكل مباشر باختلاف بين الحضارات**(هنتنغتون، صمويل:د.ت، 19)**، وهو اختلاف ثقافي في جوهره.

وحين يتطرق هنتنغتون للإسلام فإنه يجعل منه خطرا قادما يكاد يغزو الغرب، مبرزا أن خطورته تكمن في التوسع الخارجي للمجتمعات الإسلامية بفعل الوجود المكثف للجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية وما يمثله ذلك من اتساع الرقعة الجغرافية لوجود الإسلام كدين وكثقافة.

وقبل هنتنغتون كان الفيلسوف الألماني " أوزفالدشبينجلر " (ت.**1936**) قد ألف كتابا، بين عامي **1918** و1922، ذا نزعة تشاؤمية عنوانه " تدهور الغرب "، حاول من خلاله بسط تكوين لتاريخ العالم، و" طبقا له توجّب أيضا على الحضارات، التي اعتبرها كائنات حية كبيرة، أن تمرّ بعملية بيولوجية، فالثقافات أيضا، حسبه، تمرّ بطور الحداثة، ثم طور الريعان، ثم طور الاكتمال، ثم طور التدهور، ثم طور الفناء. ويتّصل شبينجلر المتشائم تجاه الحضارة بجوته ونيتشه، ويفرق مثلما فعل هنتنغتون تماما بين هذه الحضارات العالمية الثمان، ومن بينها حضارة غربية وحضارة عربية، إلا أن شبينجلر يتناول الحضارة العربية

ضمن حضارة صدر المسيحية. وأما الحضارة الغربية فقد رأى شبينجلر خلافا لهنتنغتون أن عصرها قد انتهى، أي أن الغرب سيزول"**(فيلد، ستيفان:2008)**.

كما كتب " فوكوياما " كتاب " نهاية التاريخ "، وهي فكرة تتلخص في " انتصار " الرأسمالية الغربية عن الشيوعية وقيادتها للعالم، فشهدت الخطابات الغربية المختلفة بلورة مفهوم " النظام العالمي الجديد " الذي يقوم على مبدإ " الأحادية القطبية "؛ بما يؤطر مفهوم "القطب " من حيثيات أيديولوجية وثقافية مهيمنة.

ومن ثمّ كانت قيم " الصراع " مطروحة بقوة على الساحة الثقافية العالمية، كما على الساحة السياسية؛ قيم كانت في حقيقتها تمثلا لترسبات " الماضي " التي شابت العلاقات بين الإسلام والغرب، ماضٍ شابته كثير من الصدامات العنيفة بين الطرفين تمثلت تاريخيا في شكلين من أشكال الصراع:

- الحروب الصليبية.
- الاستعمار.

ولقد عبر " مراد هوفمان " عن الترسبات الثقافية والدينية والتاريخية التي تطبع علاقة الغرب بالإسلام وتؤطر توجهاته نحوه، والتي تكرست في الخطابات الفلسفية والإعلامية والسياسية الغربية، حين يقول: " إن أوربا وأمريكا تتسامحان مع أي دين إلا إذا كان هذا الدين هو الدين الإسلامي. نعم إذا سبرت غور النفس الأوربية ولو بخدش سطحي صغير لوجدت تحت الطبقة اللامعة الرقيقة عداء للإسلام، تلك العقيدة الدفينة التي يمكن استدعاؤها في أي وقت"**(فلوسي،مسعود: 2004، 89-90)**.

وتلك ترسبات ظلت تبسط نفسها في الرؤى المتبادلة للعلاقات بين الطرفين، فصمويل هنتنغتون و" إن كان سباقا في الجهر بحتمية العداء الغربي لكل ما هو إسلامي، وفي التقعيد

لنظرية الصراع، فإنه في الواقع لم يقم سوى بالكشف عن مكنون الضمير الغربي في ميله الدائم –مع سائر الناس وخاصة المسلمين– إلى الصراع بدل الحوار على مر التاريخ، وما إسقاط الدولة العثمانية والحملة الاستعمارية على جميع بلاد المسلمين في التاريخ الحديث عنا ببعيدة"**(بوتشيش،صالح: 2004، 49–50)**.

خاتمة: عود على بدء:

تشكّل التعددية مظهرا من مظاهر نواميس الطبيعة المؤطرة للكينونة الإنسانية المبنية على أسس الاختلاف والتمايز الإثني والديني ... والملفت في الظاهرة أنها لم تكن لتطرح في دراسة المجتمعات القديمة / البدائية، وذلك باعتبارها مجموعات تقوم وفق دعامات " القرابة " أو " الانتماء الإثني"، غير أنها تتضح بجلاء من خلال مدارسة البنيات المؤسسة للمجتمعات الأكثر تطورا، والدول المعاصرة منها، وذلك بحسبان الأسس التي تقوم عليها هذه المجتمعات، من تحول في مظاهر السلطة، وكذا مفاهيم الانتماء، والرباطات الموحدة الجامعة لمجموع الأفراد المشكلين مفهوم "الجماعة "، وهي ما يصطلح عليها بـ " قيم المواطنة ".

وكذا بالرغم من كون هذه الظاهرة طبيعية وشاملة من حيث التوزع الجغرافي والتاريخي للكيانات السياسية الحديثة، إلا أنها اتخذت مسارات للصراع بين مختلف الثقافات والإثنيات؛ فالحروب الدينية والخلافات الأيديولوجية شابت مختلف أطوار الحضارات الإنسانية القديمة منها والحديثة.

قائمة المراجع:

[1]- الحبيب الجنحاني: حوار الحضارات: لماذا؟ وكيف؟ ومع من؟، مجلة العربي (وزارة الإعلام بدولة الكويت)، ع[557]، صفر **1426**هـ/أبريل (نيسان) **2005** م.

[2]- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، آذار (مارس) 2007.

[3]-زازوي موفق، بن معمر عبد الله: مستقبل الحضارات: صدام أم حوار؟ (مشروعغارودي بديلا لأطروحة هنتنغتون)، مجلة أنثروبولوجية الأديان (مجلة دورية يصدرها مخبر أنثروبولوجية الأديان ومقارنتها، دراسة سوسيو إثنولوجية، جامعة تلمسان، الجزائر)، ع[6]، جوان **2009**.

[4]- ستيفان فيلد: صراع الحضارات، مجلة التسامح، ع[52]، من موقعها الإلكتروني:

www.altasamoh.net/article,asp?id52

[5]- صالح بوتشيش: مستقبل العلاقة **2004** بين المسلمين والغرب وحتمية خيار الحوار، مجلة الإحياء، ع**8،1425** هـ / **2004**م، (عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الثالث: الإسلام والمسلمون في القرن الخامس عشر الهجري.. الواقع والآفاق "، أيام **25-26-27** ربيع الأول **1425** هـ الموافق لـ **15-16-17** ماي م.

[6]-صاموئيل هنتنغتون: صدام الحضارات، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث، بيروت، لبنان، د.ت.

[7]- مجموعة من الكتاب: نظرية الثقافة، ترجمة: علي سيد الصاوي، مراجعة: الفاروق زكي يونس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع [223]، يوليو **1997**.

[8]- محمد عبده محجوب: الاتجاه السوسيو أنثروبولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ط، د.ت.

[9]- مسعود فلوسي: الثابت والمتغير في علاقة الغرب بالإسلام والمسلمين، مجلة الإحياء (تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة باتنة، الجزائر)، ع[8]، **1425** هـ / **2004** م، (عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الثالث: الإسلام والمسلمون في القرن الخامس عشر الهجري... الواقع والآفاق "، أيام **25-26-27** ربيع الأول **1425** هـ الموافق لـ **15-16-17**مايم.

[10]– وجيه كوثراني: المسألة الثقافية في لبنان، الخطاب السياسي والتاريخ، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، لبنان، ط[1]، **1404**هـ/ **1984** م.

[11]–قاسم عبده قاسم: التسامح: المعنى والمغزى، مجلة العربي، ع[542].

www.altasamoh.net/article,asp?id52